# رولان بارت: الحائر المحيِّر

الان روب غرييه

هل كان رولان بارت مفكراً؟ إن هذا السؤال يستدعي، على الفور، سؤالاً آخر: من هو المفكر اليوم؟ كان على المفكر، منذ وقت غير بعيد، أن يحمل لمواطنيه يقينيّات، أو على الأقل بعض المحاور الصلبة، الثابتة، القادرة على أن تدعم مقولته الخاصّة، وعلى أن توجِّه، بطريق الاستتباع، فكر عصره وضميره. كان المفكرّ هو معلِّم التفكير، وكانت الصلابة مزيّته الجوهرية، نظامه الأساسيّ.

اما بارت فكان مفكّراً زَلِقاً. وقد حدث، عند إنهاء درسه الافتتاحي في «الكوليج دو فرانس»، أن عبّرتُ عن حماسي تجاه النتيجة، فقفزت عليّ فتاة مجهولة قائلة بحميّة «ما الذي يُعجبك في ما قاله؟ إنه لم يقل شيئاً من أول كلامه إلى آخره!» ولم يكن هذا صحيحاً تماماً، فقد قال من غير انقطاع، ولكنّه تجنّب أن يسمِّر ذلك في «شيء ما»: ووفق هذا المنهج الذي كان يطبّقه منذ سنوات عديدة، فقد انسحب مما كان يقول، على نحو تدريجيّ. ولكي يُسقط صيغته المستفزّة التي أثارت حوله كلاماً كثيراً ذلك المساء، مؤكداً أن كل كلمة هي كلمة «فاشية»، فقد كان يعطي المثل المقلق لمقولة لم تكن فاشية: مقولة كانت تهدم في ذاتها، على مهل، كلّ إغراء بالدوغمائية. والحق أن ما كان يُعجبني في ذلك الصوت الدي حَبَس أنفاسنا طوال ساعتين، هو أنّه ترك لي حريتي كاملة، بل أفضل من ذلك: أنّه كان يمنحها، عند منعطف كلّ عبارة، قوى جديدة.

وليست الدوغمائية شيئاً آخر غير مقولة الحقيقة. كان المفكر التقليدي رجل حقيقة، ولكنه كان يستطيع أن يعتقد – في نيّة حسنة – بأن غَلَبة الحق كانت تسير يداً بيد مع كل تقدّم للحرية الإنسانية. يوتوبيا جميلة، وخديعة رائعة أضاءت فجر مجتمعنا البورجوازي، كما اضاءت بعد ذلك بقليل فجر الاشتراكية «العلمية» البازغة. ونحن نعرف اليوم مع الأسف الى اين يفضي هذا العلم. إن الحقيقة بعد كل حساب، لم تخدم قطّ إلاّ القمع. إن قرناً من الأمل، من الخيبات البائسة، ومن الفراديس الدامية، يعلّمنا على أي حال أن نحذر الحقيقة. قال عالم اجتماعي من أصدقائي «سأصوّت لمرشّح الحزب الاشتراكي، لأنه على الأقل ليس له برنامج».

إن انزلاقات هذا الأنقليس (أنا أتحدث عن بارت) ليست معزوّةً الى الاتفاق والمصادفة، ولا الى بعض ضعف في الحكم أو في الطبع. إن الكلمة التي تتغيّر، وتتفرَّع، وترتدّ، إنما هي، على العكس، درسه وعبرتُه. وعلى هذا، فإن آخر مفكر «حقيقيّ» من مفكرينا، إنما هو السابق: جان بول سارتر. كانت لا تزال لديه هو رغبةُ حَبْس العالم في نظام تجميعيّ (كلّياني؟) جدير بسبينوزا وهيغل. ولكن سارتر كان مسكوناً، في الوقت نفسه، بفكرة الحرّية، ومن حسن الحظّ أنها هي التي لغمت جميع مشروعاته. من أجل هذا بقيت جميع أبنيته – الروائية أو النقدية أو الفلسفية المحض – غير منجزة، ومفتوحة لجميع الرياح.

إن عمل سارتر، من حيث مشروعه، هو إخفاق وفشل. ومع ذلك، فإن هذا الإخفاق هو الذي يستهوينا. فلأنه أراد أن يكون آخر فيلسوف، آخر مفكّر للكُلّيّة، كان في نهاية المطاف طليعة الأبنية الفكرية الجديدة: اللايقينية، التَبَعيّة، الانزلاق. ويتّضح لنا الآن أن عبارة «الشغف اللامجدي» التي ينتهي بها كتاب «الوجود والعدم» لم تكن بعيدة إلى هذا الحدّ عن عبارة «لنتفّق على أني لم أقل شيئاً» التي قالها جان بولان الذي كان يبدو على الصعيد المناقض.

وعام ١٩٥٠، وصل بارت عَبْر هذا المشهد الذي كان يتبدّى كفكر متهدِّم، في الانقاض. والغريب أنه علَّق حديثه، أول الأمر، على عمل ماركس المطمْئِن. وفي نزاع مع البير كامو حول موضوع «الطاعون» كان يحاول إغلاق فم الكاتب الإنساني الأخلاقي بسيادة «ماديّة تاريخية»، كما لون أن القضية كانت قضية قيمةٍ منيعة. ولكنه ما لبث أن انسحب تدريجياً من الماركسية، بلا ضجّة، على رؤوس أصابع قدميه، كالعادة.

وكانت أنظمةٌ فكرية كبيرة جديدة تغريه: التحليل النفسيّ، الألسنيّة، علم الدلالات. وما كاد يُلصق طابع العالم الدلالاتي على كتابته حتى كرهه. وسخر صراحة من «دركيّينا الثلاثة: ماركس وفرويد وسوسور» وانتهى الى فضح امبريالية كل نظام قوي، في خرافتـه الحِكْميه الشهيرة المتعلقة بدست القَلْي: إن فكرة «حقيقيّة» ذات انسجام مُفرط القوّة، تشبه زيتاً غالياً، تستطيع ان تغمس فيه أيّ شيء، فيخرج منه دائماً ما هو مقليّ.

وإذا كان عمل بارت ليس دائماً نفياً، فلأن هذه الحركة المستأنَفة بلا انقطاع، من نفسها خارج نفسها، هذه الحركة المكوِّنة للحرية (التي لا تستطيع قط أن تصبح مؤسّسة ما دامت لا توجد إلاّ في لحظة ولادتها بالذات) هي تماماً ما كان يسعى اليه منذ البدء بأكبر قدر من الشغف والحماس، منذ بريخت حتى باتاي، ومنذ بروست حتى «الرواية الجديدة»، منذ تغيُّرات الجدليّة المفاجئة حتى تحليل طُرُز السُتْرات.

وعلى غرار سارتر في بداياته، اكتشف بارت أبكر مما ينبغي أن الرواية أو المسرح، هما، أكثر من الدراسة، الوسط الطبيعيّ الذي تستطيع فيه الحرية المحسوسة أن تلعب بأكبر قدرٍ من العنف والنجاعة. إن الرواية أصبحت أشبه بالصيرورة العالمية

للفلسفة. أكان بارت، بدوره، روائياً؟ إن هذا السؤال يستتبع بالضرورة سؤالاً آخر: ما هي الرواية اليوم؟

إن من المفارق، حين اعتبر بارت رواياتي الخاصة في الخمسينات آلات جهنميّة تتيح له أن يمارس الإرهاب، أن يجهد في تقليص انزلاقاتها المرائية، وأشباحها الموحية، وتصمُّغها الذاتي، وانفغاراتها، الى عالم شيئيّ لن يؤكّد، على العكس، ألاّ صلابته الموضوعية والحرفيّة. كان هذا المظهر ماثلاً بالتأكيد في الكتب (وفي أحاديثي النظرية) ولكن كقطب من قطبي تناقض غير قابلين للتصالح. إن بارت يقرّر ألاّ يرى على الإطلاق المسوخ المختبئة في ظلال اللوحة المفرطة الواقعية. وحين تكتسح الأشباح الشاشة بشكل مفرط الوضوح في «السنة الماضية في ماريانباد»، نراه يُنزل اللوحة.

وأعتقد أنه كان يعاني في نفسه مثل هذه التناقضات. لم يكن يريد أن يرى في روايتي «الماحي» أو روايتي «المتلصِّص» لا شبح أوديب الملك ولا تسلُّط الجريمة الجنسية، لأنه، وهو يكافح أشباحه الخاصة، لم يكن بحاجة إليّ إلاّ كمشروع تنظيف. لقد اختار، بصفته إرهابياً ماهراً، أحد ضلوع النص فقط، الضلع الأكثر حدّة، ليستعملني بمثابة سلاح أبيض. ولكنه ما يكاد في المساء يهبط من المتراس حتى يعود الى منزله ليتمرّغ بالتذاذ في كتابات زولا، في نثره الدسم ونعوته المنقوعة في المَرَق... مع احتمال أن يعزو «نَعْتيّته» الى ثلج روايتي «المتاهة».

وبعد عشر سنوات، عاد يحيّي بحرارة رواية «مشروع لثورة في نيويورك» التي امتدح جودتها «ذات الطراز الليبنتزي»، وإن كان متحرّكاً. وهذا كله لا يحلّ السؤال الكبير: أية روايات كان عساه يكتب هو نفسه؟ كان يتحدث عنها أكثر فأكثر، علناً وسرّاً. وأنا أجهل أن كان في أوراقه بعض المسوّدات أو المقاطع. وعلى أي حال، فأنا واثق أنها لن تكون مثل «الماحي» ولا «مشروع لثورة...». كان يقول إنه لم يكن يستطيع أن يكتب إلا «رواية حقيقية»، وكان يتحدث عن مشكلاته المتعلّقة بالفعل الماضي البسيط وأسماء شخصياته. وفي انزلاق أقوى من الانزلاقات السابقة، كان يبدو أن المشهد الأدبيّ، حوله، قد عاد إلى ما كان عليه في آخر القرن التاسع عشر.

ولِمَ لا، بعد كل حساب؟ يجب ألاّ نحدِّد، قبلياً، معنى كل بحث. وقد كان بارت من الدقّة والدهاء بما فيه الكفاية لتحويل هذه الرواية الحقيقية، مرة أخرى، الى شيء جديد، محيِّر، متغيِّر (*).

**ترجمة «الآداب»**

★ مقال نشرته مجلة «لونوفل اوسرفاتور» الفرنسة في عددها ٨٨٥ بمناسبة مرور عام على غياب رولان بارت


عن دار الآفاق الجديدة صدر حديثاً

صدرت الطبعة الرابعة من «علم النفس في حياتنا اليومية» الكتاب الذي يكشف لك سر الحياة السعيدة بفضل الاساليب المحددة التي تتيح لمفتاحك الى ذاتك الداخلية ان يفتح مستودعاً كبيراً من الطاقة الخلاقة.

هذا الكتاب، بالدراسات والاختبارات السيكولوجية التي يتضمنها، يساعدك على تنمية ذاتك، ومعرفة نفسك وشخصيتك معرفة أدق وأشمل، وسد الثغرات فيها.

٢٨٨ صفحة · ١٧ × ٢٤ ١٥ ل. ل

شارع المقدسي - رأس بيروت - بناية حنا تلفون ٣٤٩١٧٨ - ٣٤٩١٧٩ - ص.ب ٧٣٠٢ برقياً: دافاقهد بيروت، لبنان تلكس: درافاق LE ٢٣٣٩٣